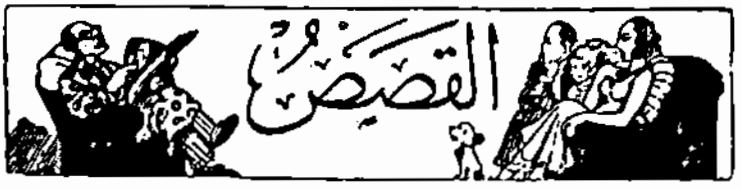

عودة الروح

للكاتب الفرنسي تيودور دي بانفيل

استكملت السيدة هورتنس دافراي في ١٨٨٢ ربيعها العشرين ، وليس في قولي « السيدة » تجانفا مني ولا مينا . فقد كانت هورتنس زوجة ، بل أرملة بائسة لا ولد لها يسهر عليها ولا قريب يؤويها إلا جدتها « مدام دي بريل » .. استقدمتها تلك الجدة لتشاطرها العيش في مسكنها بشارع ليل . وكانت هورتنس تنشق — بقرب جدتها — آخر نسمات العيشة العائلية الهادئة تهب عليها في ونى وهدوء . قد مضى الآن حولان كاملان على وفاة جدتها الطيبة التي ماتت حزينة قلقة على مصير حفيدتها إذ تتركها وحيدة في غياهب الفقر وأمواج الحياة . إنها عمرت ثمانين عاماً رأت فيها من تحب يتزوجون ، ومن تعرف يرحلون ، ولم يبق منهم أحد تعهد إليه بحفيدتها البائسة

ولما أحست مدام دي بريل بأجلها يقترب ، رتبت أمرها في شهرها الأخير ، كي لا تقلق بال حفيدتها . ولقد غالت الجدة في ذلك ، فكانت ترمي أوراقا كثيرة في النار وتحفظ الأخرى . وكانت الجدة تحتفظ — طوال مرضها — بصندوق صغير في دولابها الكبير . وكانت تضع مفتاحه في خيط من الحرير تحت الوسادة الحائلة . وكثيرا ما كانت الجدة تمسك الصندوق ساعات طوالا ، كأنما تريد أن تنتهي من أمره إلى حل ، وتتخذ حيال ما فيه قراراً . ودهمتها سكرة الموت قبل أن تقرر مصيره أو تتخلص منه

واستشعرت السيدة دافراي قلقاً يساورها عندما عثرت يداها الباحثتان على الصندوق الصغير

وقررت أول الأمر أن تحرقه — أمانة منها وإخلاصا — دون أن تعرف ما فيه من أسرار . ولكنها لم تفعل ذلك خشية أن تضيع — بحرقه — أداء واجب عليها أداؤه ، أو وصية لابد منها . وهكذا فتحت الصندوق وألفته مليئا برسائل جمة ، لا تحمل العنوان على الأغلفة كما هي الطريقة الحديثة ، ولكن تحمله على شرائح من ورق رفيع . وقد علمت — بعد أن بصرت بأول خطاب — أنها ليست رسائل جدتها مدام دي بريل ، ولكنها رسائل أم جدتها — السيدة إيودكسي تيرين . وقد رأت هورتنس تلك الجدة العتيدة . فإنها لم تمت إلا أخيراً في سنة ١٨٨٢ . ولها من العمر خمسة وثمانون عاماً

على أنها تستطيع أن ترى خيالها كل حين إن أرادت ، فأسرتها تحتفظ لها بصورة رسمها البارون جروس ، في ميعة شبابها ووفرة صباها . وقد كان عن طريق غريزة ركبت فينا ، نشعر بها ولا نستطيع أن نكيفها ، أن رأت هورتنس دافراي بينها وبين صورة الجدة — التي صورت من ثلاثة وخمسين عاماً خلون — شبها قوياً . بل لتكاد — إذ تنظر إليها — ترى وجهها في مرآة صافية !

ذلك بأن الطبيعة يحلو لها في فترات مختلفة وفي أسرات خاصة ، أن تعيد خلق وجوه درست وتوت بالتراب من أمد بعيد .. تعيد خلقها كما كانت ، كأنها مثال يأخذ عدة أشكال من قالب واحد . ولكن المرء يسائل نفسه في تلك الأحوال : إلى أي حد يبلغ الشبه ؟ أيقتصر على الوجه والخلقة ؟ أم يسيطر على الأفكار والمشاعر ؟ أم ينفذ إلى سواد الفؤاد ؟ ! تلك مشكلة من مشاكل العلم الحديث يرمينا بها فتفتح أمامنا آفاقا واسعة غير ذات بر ولا حدود

وقبل أن تقرأ السيدة دافراي أولى الرسائل لمحت سكة كبيرة تتدحرج في الصندوق بجوار جداره الرقيق . فالتقطتها ، وتفقدتها ، فإذا بها رسم ملازم شاب ، من ضباط الدولة الأولى ، ذي شعر وحف جعد ، وعينين يلمع فيهما بريق الشهامة ويأس الشباب . وجبهة قسمتها ندبة جرح طولي إلى قسمين عريضين . ينبسط أكبرهما من حاجبه الأيمن إلى منبت الشعر بوسط المحيا . وجبهته عامة جبهة شجاع جسور . وأدمنت هورتنس النظر في الصورة ، فجذبها بريق العينين ، وفتنها سحر الجمال ، وأخضعها بأس الهوى ! فاستشعرت في قلبها آلافا من المشاعر المتضاربة

المركبة ، آلافا من خوف وأخرى من سرور ، إنها تحب ! ولكن ويلها من تحب ! ؟ فتى مرت على وفائه حقب وأعوام ، وتوالت على قبره أحداث ورجام ! فتى دالت دولته ، وراحت صولته ، وقدر لها ألا تراه على الأرض حيا ! ... ولكن كثيرا ما لعبت الجذوة التي تلهبنا بالحقائق والأفكار ! وكثيرا ما كانت الحقيقة شيئاً مستحيلا ، فليس ضرورة أن يكون الشئ ممكناً حتى نقول بأنه حقيقة

وإنه لمن الضلال البعيد أن نقول بأن هورتنس قد فجأها الحب ، ولكنها كانت تشعر في قلبها بحب قديم ، له آلامه وآماله ، ولسبب ما خمد وانطفأ بل نزع من القلب والذهن انتزاعاً. ولكنه استعر فجأة ، وقفز إلى ذهنها وقلبها معاً يعذب هذا بالذكريات ، ويكوى ذاك بالشوق والألم

وتفقدت الرسائل فإذا بإمضاء واحد يذيلها جميعا . وقرأتها في شغف وجنون . ثم كانت لا تنى عن القراءة والإعادة كأنها محمومة . ولم يكن عسيراً أن يجمع المرء خيوط القصة التي أنجبت تلك الرسائل

تزوجت جدتها السيدة إيودكسى تيرين من أحد متعهدى الجيوش . وكان كهلا أنانيا ، أفسدته الخلاعة ، وأضواه المجون . وقد مكنتها مهنة زوجها من الاتصال بضباط الجيش . فهام بحبها ملازم شاب من جند نابليون ، يدعى بول فراند وجرفها تيار هواه . فلم تستطع أن تقاوم أو تتشبث . فسايرت التيار في هوادة وإخلاص . فكان جميلا أن ترى عاشقين شفهما الهوى وبرح بهما الغرام يتعاطيان كؤوس الوصل مترعة هنية ، وينهلان من منبع الحب الخالص ، فيحلمان بسعادة خالدة ، ونعيم مقيم . غير أنهما — طوال الوقت — يشعران بأجنحة الموت السوداء تصفق فوقهما كأجنحة الخفاش الأعمش ، وبإنسان يمسوح الردى الطخياء تهددها بالبعد والحداد

وسرعان ما تبددت الأحلام ، وحلت المخاوف ! لقد فرق الدهر المشتت بينهما أيام « أوسترلتز » وإيينا وإيلو ، أيام فريدلند ووجرام ... وكانا قليلا ما يلتقيان — في تلك الأعوام العصيبة — لحظات معدودات . ولكن فراندير كان يختلس ما بين واقعتين أو ما بين نصرين فيسيطر لها — وهو أشعث أغبر — آيات الحب والهيام . ويبثها وقدة الشوق وجذوة الهوى . يسطر لها رسالات مترعة أسى وعذاباً ، تقرأها الآن حفيدتها الصغرى بين دمع واكف وقلب خافق ، بين صدر يعلو ويهبط كالموج ، وأنفاس حرى تذهب وتجئ . كان من أجل إيودكسى — كما كان من أجل نابليون — أن خاض فراندير المعارك الدامية ، وشرق في البلاد وغرب ، وقاسى كثيراً واصطبر . كان يريد أن ينصر العاهل حتى النفس الأخير ، وأن يكسب لإيودكسى عرشاً فخيما

ومات في تلك الأثناء زوجها . وحن فراندير الأمل ، وحن إليها ففكر في الرجوع إلى الوطن . وبينما الأمل ينمو ويوطد الجذور ، والشوق يستعر والقلب خفاق ، إذا به يقع في الميدان يتشحط في دمه المغرم ، وإذا برصاصة تخترق صدره العاشق وتسكت قلبه الخافق . فثوى في حزون سمولنسك الباردة وحيداً ، لا قلب يحقق له ، ولا دمع يترقرق في المحاجر أسى عليه . ونمى فراندير زميل ائتمنه على سر قلبه وذات صدره . وكان خطاب الزميل مع الرسائل الأخرى في الصندوق الصغير

ما في هذا الأمر من شئ غريب . ولكن الغريب حقا أن يتراءى لهورتنس دافراى أن التوسلات والذكريات التي حفلت بها الرسائل ، وأن الجوى والهيام كل ذلك لها هي من دون جدتها إيودكسى تيرين . واندفعت روحها الظامئة تاشدة ذلك الحب ، تاركة وراءها الحقيقة ونواميسها ، وحلقت بالغرام في الخيال غافلة عن الواقع ونظمه ، وتمادت في ذلك فاستباحت لنفسها أن تخلق المعدوم وأن توجد المستحيل ! ولم تكتف بذلك بل وهبت نفسها لفراندير هذا دون أن تفكر لحظة أنه مات منذ أمد بعيد ، في تيه المجد وضجة النصر المبين . واعتقدت أنه يوماً موافيها ، وأنها ملاقيته بعد أمد قريب أو بعيد ، وأنها مسلمة عليه ومصغية لحديثه الحنون ، ولم يخامرها في يقينها هذا شك ، ولا وجدت على عقيدتها غباراً ... رأت فأحبت فأغرمت فتعذبت ثم راحت تنتظر الحبيب بثقة واطمئنان !

لو رأى النائم المعجزات في حلمه لما استغرب ، لأن النفس تكون متطلقة من الواقع ونظمه ، والحقيقة وأشراطها . وكذلك لم تستغرب هورتنس دافراى — حينما كانت تزور مدام دى

سيمور — أن تعلن الخادم قدوم السيد بول فراندير !

وأنه يدخل ، هو بعينه الذى أحبت وتحب : بول فراندير ! بول فراندير بشعره الوحف المجعد ، وعينيه السوداوين ، ثم بندبة الجرح فى جبهته العريضة ... لم يكن هناك فرق سوى أنه يرتدى زى ملازم من مدفعية الفوج الإفريق الأول ... كلا ! لم تعجب مدام دفيراى إذ تراه ، فقد كانت تنتظره بصبر واطمئنان . على أن قلبها غاص فى حنايا صدرها البض ، وراح يحطم ضلوعها بخفقه الشديد ، وودت إن لم تكن بين ذلك الجمع من الرجال المتأنقين وتلك الثلة من النساء ذوات الأساور والحلى ، فتقفز كالغزال إليه ، ثم تغيب فى أحناء صدره الرحيب قائلة « هأنا ذى » !

وانحنى فراندير لعمته مدام دى سيمور . ثم رى هورتنس فجأة ، فبهت ، لا عرف لديه ولا نكر ، وغاض لونه واصفر وجهه ، واستطاع بعد لأى أن يعتمد على الحائط وأن يجر قدمه الواهنة إلى مخدع كان لحسن الحظ خاليا ، فتخاذل وارتمى على بساطه الثمين . ودهشت مدام سيمور من سلوكه الناشز عن العرف والتقليد ، فتعقبته إلى حيث تداعى يئن أنيناً . ودخلت المخدع ساعة رانت عليه صفرة الموت وغاب عن الوجود

واستدعت عمـــته طبيباً مشهوراً من أضيافها . ولكنها أحست — بغريزة المرأة — أن هناك سرا لا يحسن أن تفض غلفه لأحد غريب . فجثت على العليل تدلك رأسه وصدغيه ، وتنشقه بعضاً من ملح قوى مفيق . ثم رفعت رأسه براحتيها واضعة تحتها وسادة من حرير غال

ولما أن أفاق وثاب إليه الوعى ، دس يده فى جيب صداره وأخرجها تحمل رسماً على ورق قديم ، حمله قبلات والهة ، فأراه عمته ، ثم صاح فى فرح المجنون وطرفه غريق فى الدمع الهتون : « أى بلانش ! بلانش ! إنها تحيا ! » فأجابته عمته : بلانش ! بالطبع ! إن هورتنس دافراى تحيا ، وهى فوق ذلك صديقتى . ولكن قل لى لم تدخل فى زى الدولة الأولى ؟ على أنك لم ترها مرة واحدة ! فما معنى تلك النوبة التى انتابتك من لحظة ؟ فقال فراندير :

— إنى لم أرها إلا الآن ولكن روحى هامت بها من زمن بعيد ، وأوسعتها حبا وعشقاً . وقد استقر حبها بين جوانحى وفؤادى ، وسرى بين لحمى وعظمى . لم يفارقنى ذلك الرسم منذ خلص إلى وتناهى من ثلاثة أعوام خلون . واصطحبنى فى الفتح والحروب ، فى النفق والخنادق ، فكان رسول السلام إلى قلبى المولع الجازع إذا ما اشتد النزال وحمى الوطيس ، وكان بشير الحصانة إذا ما رنق على الرؤوس الموت ليختار على أى يقع . كان فيض الأمل ونبع الحياة ، كان كل هذا برغم ما كنت أعلم عن موت صاحبته . ولكنى لا أملك من أمرى شيئاً . وكنت أعلل نفسى أنى ملاقيها فى جنان الرحمن حيث لا تعجز اللقيا ... ولم يكن خيالى يستبيح لنفسه — وهو الشرود الجموح — أن يتصورها حية فى عصرنا هذا . فهو إن صورها يصورها ناعمة بجلال بين الورود والزهور فى جدثها العاطر . فيطير لبى شعاعا ، وتنسرق نفسى هياما وحبا !

— هذا حسن ! ولكنك لم تحدث لى من أمر الصورة ذكراً . كيف تناهت إليك ؟

— ذاك أمر بسيط ! فقد كان لدى أبى — فى مكتبه — مكتب مهجور . طلبته منه كى أستذكر عليه فأعطانيه ولم يعمل . وقال لى إنه من مخلفات — سمى — عمه الأكبر بول فراندير ، كان ملازما فى جيش الدولة الأولى . ومات فى سمولنسك فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٨١٢ . وكانت مفاتيح المكتب ضائعة فاضطررت إلى كسر أغلاقه ، وفى أحد أدراجه الخفية عثرت يداى المجدودتان بتلك الصورة المقدسة ، ولقد عشقتها من ذلك الحين

— حقا إن فى ذلك الحادث جانباً كبيراً من الغموض والإبهام ، وعلى أية حال فأنت شاب طليق وهى فتاة حرة . فلا مانع يفصلكما من الحب ويحرمكما الزواج

ولكن الأمانى كانت سراباً . فقد ادكر كل من بول وهورتنس صاحبه ، فتذاكرا العهود وجددا الغرام ، فنعما بجنة الحب لأمد قصير . ولكن بول ذهب فى فوجه إلى «تونكين» وهناك مات — كجده — برصاصة شقت الصدر وباتت فى الفؤاد ، أى بؤس وعذاب !

م . م